قال رحمه الله تعالى :

[فصلٌ (بعث بئر معونة) : وفي صفر هذا كان بعثُ بئر معونة ، وذلك أن أبا براء عامر بن مالك – المدعو مُلاعب الأسِنَّة – قدِم على رسول الله ﷺ المدينة فدعاه إلى الإسلام فلم يُسلم ولم يُبعِد . فقال : يا رسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك لرجوتُ أن يجيبوهم ، فقال : "إني أخاف عليهم أهل نجد" ، فقال أبو براء : أنا جارٌ لهم . فبعث ﷺ فيما قاله ابن إسحاق أربعين رجلاً من أصحابه ، وفي الصحيحين سبعين رجلاً ، وهذا هو الصحيح . وأمّر عليهم المنذر بن عمرو أحد بني ساعدة ، ولقبه المعنِق ليموت –رضي الله عنهم أجمعين – وكانوا من فضلاء المسلمين وساداتهم وقرَّائهم، فنهضوا فنزلوا بئر معونة ، وهي بين أرض بني عامر وحرة ابن سُليم ، ثم بعثوا منها حرام بن ملحان أخا أمَّ سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل فلم ينظر فيه ، وأمر به فقتله ، ضربه رجل بحربة، فلما خرج الدم قال : فزت ورب الكعبة] .

****

في هذا الفصل تحدَّث الإمام بن كثير رحمه الله تعالى عن بعث بئر معونة ، وبئر معونة هو بئرٌ يبعد عن المدينة من جهة نجد مسافة أربعة مراحل ، والمرحلة تعادل في وقتنا الحالي بالكيلومترات أربعين كيلومتر ، فأربع مراحل في أربعة يعني في مسافة مئة وستين كيلو متر تبعد عن المدينة . فبعث عليه الصلاة والسلام بعثاً إلى جهة بئر معونة إلى بني سُليم ، ولهذا البعث قصة وسبب ساقه المصنف الإمام بن كثير رحمه الله تعالى .

قال : ((**في صفر هذا** – أي في السنة الرابعة من الهجرة – **كان بعث بئر معونة**)) .

((**وذلك أن أبا براء عامر بن مالك المدعو** – أي الملقَّب– **مُلاعِب الأسِنَّة**)) ؛ الأسنَّة : هي الرماح تستخدم في القتال ، ومُلاعب الأسنة لأن الرجل فيه جسارة وكان معروفاً بشجاعته وإقدامه ، فكان يُقْدم في الحروب ولا يهاب كأنه يُلاعب الرماح ؛ فلذا كان يُلقَّب « مُلاعِب الأسِنَّة » ، وأيضاً في بعض المصادر يلقَّب « مُلاعِب الرِماح » هما بمعنى واحد .

((**قدِم على رسول الله ﷺ المدينة فدعاه إلى الإسلام ، فلم يُسلِم ولم يُبعد**)) ؛ يعني لم يُظهِر إسلاماً ولم يُبعِد ، لأن من الناس من يبعِد يعني ينكر ويُكذِّب ويأبى ويمتنع ، أما هذا لم يعلن إسلاماً أو قبولاً للإسلام وأيضاً في الوقت نفسه لم يبعِد.

فعرض على النبي عليه الصلاة والسلام عرضاً قال : ((**لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم**)) ؛ وهذا من الشواهد أن الرجل لم يُبعِد قال : "لو أرسلت أرجو أنهم يجيبون " يعني كأن الكلام الذي سمعه كلام مقنِع وكلام مقبول ، فلم يُبعِد وأيضاً لم يُكذِّب ولم يعلن في الوقت نفسه إسلاماً لكنه عرض على النبي عليه الصلاة والسلام أن يبعث مجموعة من أصحابه إلى جهة نجد ، وتلك الجهة كانت أيضاً فيها خصوم وأعداء للرسول الكريم ﷺ ولدعوته لدين الإسلام ، من أشدهم ضراوة من سيأتي ذكره عدو الله عامر بن الطفيل .

قال : ((**فقال عليه الصلاة والسلام : إني أخاف عليهم أهل نجد**)) ؛ أي لما ظهر وبرز فيهم من عداوة لدعوة النبي ﷺ .

((**فقال أبو براء : أنا جار لهم**))؛ –كما في الحديث الصحيح الذي رواه عبد الرزاق والطبراني والبزار وغيرهم – يعني ابعث بعثاً وهم في جواري ، وهذه الكلمة لها وزن ولها قيمة

ولها بُعْدها عندهم ، إذا قال الرجل فلان في جاري (جواري) – وله هيبته ومكانته – لا أحد يتعرض له إلا إذا أخفِرت ذمته وأُخفِر جواره ، فقال : هم في جواري ، بمعنى أنا كفيل لهم أن لا يتعرض لهم أحد ، ومعنى ذلك أنه يرجع إلى بلده ويعلن يقول : سيبعث محمد بعثاً هم في جواري ، بمعني أن من يتعرض لهم بمثابة من تعرض لمن أجارهم . لكن عدو الله عامر ابن الطفيل أخفر ذمة عمه فيهم ، لأن أبو براء عمّ عامر ابن الطفيل .

قال : ((**فبعث ﷺ فيما قاله ابن إسحاق أربعين رجلاً من أصحابه ، وفي الصحيحين سبعين رجلاً**)) ؛ الذين بعثهم بناء على طلب براء عامر ابن مالك ، عددهم كما ثبت في الصحيحين سبعين رجلاً .

((**وأمّر عليهم المنذر بن عمرو أحد بني ساعدة ، ولقبه المعنِق ليموت**)) ؛ وهذا مرّ معنا قريباً ذكره في غزوة أحد ، كان على إحدى المجنبتين المنذر ابن عمر الملقب بالمعنق ليموت ، المعنق : المسرع ، ليموت : أي ليطلب الشهادة في سبيل الله .

قال : ((**وكانوا من فضلاء المسلمين وساداتهم وقرَّائهم**)) ؛ وانتبه لهذه ، هؤلاء السبعون كانوا من فضلاء المسلمين وسادتهم وقرَّاءهم . جاء في صحيح البخاري عن أنس بن مالك ﷺ قال : ((كُنَّا نُسَمِّيهِمْ القُرَّاءَ فِي زَمَانِهِمْ، كَانُوا يَحْتَطِبُونَ بِالنَّهَارِ، وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ)) وكانوا من الاحتطاب الذي بالنهار ينفقون على أنفسهم وينفقون أيضاً على أهل الصُفّة – على الفقراء – . فكانوا معروفين بصلاحهم وباستقامتهم وبعبادتهم وبالقراءة ؛ (قرَّاء لكتاب الله ﷻ) ، فكانوا أفاضل مثل ما وصفهم الإمام ابن كثير ((كانوا من فضلاء المسلمين وسادتهم وقرَّاءهم)).

قال : ((**فنهضوا فنزلوا بئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرة ابن سليم**)) ؛ المكان الذي أُشير سلفاً إلى موضعه أو بُعده من المدينة .

((**ثم بعثوا منها**)) أي من البئر التي نزلوا عندها .

((**حرام ابن ملحان أخا أم سليم**)) ؛ وهو خال أنس ابن مالك ﷺ .

((**بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر ابن الطفيل**)) ؛ عامر ابن الطفيل هذا كان رأساً من رؤوس المشركين ، وسبق أن جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وعرض على النبي ﷺ ثلاثة خصال –كما جاء في صحيح البخاري – عرض على النبي عليه لصلاة والسلام

أموراً ثلاثة ، وعرْضه هذا يدل على كبره وعلى عناده وعدم قبوله أصلاً لدعوة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، فقال للنبي عليه الصلاة والسلام : أدخُل في دينك و " يَكُونُ لَكَ أَهْلُ السَّهْلِ وَلِي أَهْلُ المِدَرِ " يعني نتقاسم زعامة الناس ، أنت تكون زعيماً على أهل السهل يعني أهل الحاضرة وأهل المدن ، وأنا أكون زعيماً على أهل المدر يعني أهل الخيام وأهل البوادي . " أَوْ أَكُونُ خَلِيفَتَكَ " يعني تعلن أن الخلافة بعدك تكون لي . " أَوْ أَغْزُوكَ بِأَهْلِ غَطَفَانَ بِأَلْفٍ وَأَلْفٍ " يعني أجمع عليك من غطفان ألف فارس بألف من الخيل نقاتلك . فكان رجلاً متغطرساً متكبراً معانداً معادياً لله ﷻ ولرسوله صلوات الله وسلامه عليه .

فلما قدَّم إليه حرام ابن ملحان ﷺ خطاب النبي عليه الصلاة والسلام ((**لم ينظر فيه ، وأمَر به فقتله**)) ؛ يعني لم ينظر في الكتاب أصلاً ، ووجَّه بقتل هذا الصحابي الجليل ﷺ .

((**ضربه رجل بحربة**)) ؛ جاء إليه أحدهم بإشارة من عامر ابن الطفيل من الخلف وطعنه بحربة في ظهره فمات من لحظته .

((**فلما خرج الدم قال : فزتُ ورب الكعبة**)) ؛ لما خرج الدم كما جاء في الخبر قال : " اللَّهُ أَكْبَرُ، فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ " ، فهو يرى أن هذا الأمر الذي حصل له فوز عظيم ، لأنه فاز بالشهادة في سبيل الله ﷻ ونال هذا الأمر الذي هو اصطفاء واجتباء والله ﷻ يتخذ من عباده من شاء شهداء ، ففرح بهذا الفوز وكبَّر تكبير فرح وغبطة بنعمة الله ﷻ عليه وقال هذه الكلمة " فزت ورب الكعبة " .

وكانت هذه الكلمة التي قالها مؤثرة فيمن طعنه ، والذي طعنه من الوراء يقال له جبَّار ابن سَلمى ويُضبط أيضاً في بعض المصادر بضم السين ، فكان جبار هذا لما طعن حرام ﷺ وقال هذه الكلمة قال : " قلت في نفسي ما فاز!! ألست قد قتلتُ الرجل؟ " ؛ يعني أين الفوز ؟ رجل قُتل وطُعِن ويقول فزت !! قال : " حتى سألت بعد ذلك عن قوله " ، يعني بقيَت هذه الكلمة في نفسه حتى سألت بعد ذلك عن قوله ، فقالوا للشهادة ، يعني فاز بالشهادة في سبيل الله ، " فقلتُ فاز لَعمر الله " وكان طعنه لهذا الصحابي الجليل سبباً لإسلامه .

ولنلاحظ في هذا المقام أن عدداً من المشركين تأثروا بمواقف في قتال المسلمين عجيبة ومؤثرة جداً ، فكان نفس الشهادة التي حصلت لهم دعوة للإسلام ، لأن في قصة استشهاده

مواقف مؤثرة جدًا ، ولهذا من يتتبع هذا الأمر يجد أنه في عدد من الوقائع أن الشهادة نفسها كانت سبب في إسلام عدد من هؤلاء . فحرام ابن ملحان ﷺ أكرمه الله ﷻ بالشهادة في سبيل الله على يد هذا الرجل ، وأيضاً أكرم الله ﷻ هذا الرجل بالدخول في الدين بقصة شهادة هذا الرجل في سبيل الله .

وهنا أنقل لكم موقفاً عجيباً في هذا الباب مخرَّج في صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى : لما جاء أبو هريرة ﷺ عام فتح خيبر ولم يتمكن من إدراك الغزوة وإدراك فتح خيبر ، فجاء والنبي عليه الصلاة والسلام يقسم سهام المعركة ، فطلب ﷺ من النبي عليه الصلاة والسلام أن يقسم له من السهام ، فكان عند النبي عليه الصلاة والسلام رجل يقال له أبان ابن سعيد ابن العاص وهذا الرجل كان في معركة أحد مشركاً وكان مع الكفار ، وفي تلك المعركة قتَل بعض المسلمين وممن قتلهم الصحابي الجليل – وسأتحدث عنه بعد قليل – النعمان ابن قوقل ﷺ، فلما طلب أبو هريرة ﷺ من النبي عليه الصلاة والسلام أن يعطيه سهماً من خيبر قال أبان : "هو لم يشهد " ، يعني لم يشهد المعركة ولم يخض القتال ، فقابل أبو هريرة هذه بواحدة ، قال يا رسول الله هذا قاتل ابن قوقل ، فقال أبان ابن سعيد كلمة — حقيقة – عجيبة جداً للغاية ، قال ﷺ : " وا عجباً تنعي عليَّ قتل رجلٍ مسلم أكرمه الله على يدي ، ولم يهُنِّي على يديه؟! " . لأنه لو كان ابن قوقل هو الذي قتله لكان الله أهان أبان على يد ابن قوقل فمات على الكفر بالله وكان من أهل النار . فيقول : أتلومني على رجل أكرمه الله بالشهادة على يديَّ ولم يهنِّي على يديه بأن يقتلني وأموت وأكون من أهل النار !! ، ثم إن أبان منّ الله عليه بالإسلام وهاهو يقاتل مع المسلمين في غزوة خيبر ، والإسلام يجُبُّ ما قبله .

فالشاهد أن وأنت تقرأ السيرة يمر عليك مواقف أحياناً من بعض المشركين يكون منه نكاية شديدة في المسلمين أو قتْل لبعض فضلاءهم أو نحو ذلك ، فقد يتأثر الإنسان في الموقف نفسه ، فربما بعض الناس يتحرك لسانه أو قلبه بأن يريد أن يدعو على ذلك الشخص ؛ فليتريَّث لأن عدداً منهم قد أسلم ، فهذا الذي قتل حرام منَّ الله عليه بالإسلام ، وأبان ابن سعيد الذي قتل النعمان ابن قوقل ﷺ منَّ الله عليه بالإسلام ، أيضاً الذي قتل زيد ابن الدثنّه وهو صفوان ابن أمية وهو ابن أمية ابن خلف ألدّ الأعداء للرسول عليه الصلاة والسلام وقد قُتِل في غزوة بدر ، فكانوا اشتروا زيد ابن الدثنّه ممن أسروه ليقتلوه بوالدهم ،

وقتله صفوان ابن أمية بوالده أمية ابن خلف ، ومنّ الله ﷻ على صفوان هذا بالإسلام فأسلم بعد حُنين. أيضاً قاتل خبيب ﷺ وهو عقبة ابن الحارث النوفلي منَّ الله ﷻ عليه بالإسلام ، أيضاً وحشي الذي قتل حمزة عم النبي عليه الصلاة والسلام منّ الله عليه بالإسلام وشارك في مقاتلة مسيلمة الكذاب وكان ممن باشر قتل مسيلمة الكذاب ؛ فمثل هذه الأمور تجعل طالب العلم يقف وقفة قبل أن يتسرع لكلمة أو نحو ذلك ، وبعد ذلك يكون منه الأمر عن علمٍ وبينة ، فعدد كبير من هؤلاء منّ الله عليهم بالهداية لدين الله ﷻ.

للفائدة بمناسبة ذكر ابن قوقل : النعمان ابن قوقل يُنسب إلى جده وهو من السبعين الذين استشهدوا في غزوة أحد وهو أوسي أنصاري رضي الله عنه وأرضاه ، ولعل الكثير منّا يذكر له حديث في صحيح مسلم وأورده النووي في الأربعين حديث جابر ابن عبد الله أن النعمان ابن قوقل أتى النبي ﷺ وقال : ((أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ، وَصُمْتُ رَمَضَانَ، وَأَحْلَلْتُ الْحَلَالَ، وَحَرَّمْتُ الْحَرَامَ، وَلَمْ أَزِدْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا، أَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟)) قَالَ: «نَعَمْ» ، قَالَ: ((وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا)) ؛ الحج لم يُفرض في ذلك الوقت ، ومات قبل أن يُفرض الحج، ولعله لم يكن من أهل الزكاة ، والزكاة في قول جمهور أهل العلم فُرضت في السنة الثانية من الهجرة ، يسأل : هذه الأعمال أحافظ عليها وأضبطها ولا أفرِّط فيها ((أَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟)) قال «نَعَمْ» ، فقال : ((وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا)) فكان على همته وصدقه فأكرمه الله ﷻ بالشهادة في سبيل الله ، فمثل هذه الهمم العالية والرغبات الصادقة قراءة أخبارهم ومطالعة سيرهم – سيرة ابن قوقل على وزن جعفر وغيرهم من الصحابة ﷺ – فيه نفع عظيم لطالب العلم ، لكن كثير منّا الآن شُغِل عن قراءة سيرة ابن قَوْقَل والصحابة الكرام بالدخول في (قُوقِل) محرك البحث في الانترنت ، وكثير من شباب المسلمين وشاباتهم أمام هذا المحرك يدخل في متاهات وفي مضيَعة وفي فساد للعقول وحرفٍ للأفكار ومتاهات لا خطام لها ولا زمام ، فمنهم من دخلت عليه شبهات تتعلق بالعقائد ، ومنهم من تحركت في نفوسهم شهوات ، بينما لو كان الشخص فعلاً يحفظ وقته في مطالعة سير الصحابة وأخبارهم ومآثرهم ومناقبهم لكان بصفة أخرى وبحالٍ مباركة غير هذه الحال الأسيفة التي ابتلي بها كثير من الشباب والشابات في مثل هذا الزمان ، كتب الله ﷻ بمنّه وكرمه الصلاح

والتوفيق والهداية للشباب والشابات ولأبناء المسلمين وبناتهم ، وأعاذ الله ﷻ الجميع من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

أيضاً ممن قُتل مع حرام أحد الأعيان المشاهير وهو : عامر ابن فهيرة ؛ وهو مولى لأبي بكر وكان يرعى الأغنام ، ولما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام وأبو بكر كان معهما في صحبتهما وكانا يُعقبانه في بعيريهما ، يعني مرة ينزل النبي ﷺ ويجعله يركب ، ومرة ينزل أبو بكر ويجعله يركب وهو مولى !! وهذا أيضاً مما يدل على التواضع والكرم وسخاء النفس ، فعامر ابن فهيرة رضي الله عنه ممن استشهد في هذه المعركة . جاء في صحيح الإمام البخاري مرسلاً عن هشام ابن عروة قال : ((أَخْبَرَنِي أَبِي- أبوه عروة ابن الزبير - قَالَ: لَمَّا قُتِلَ الَّذِينَ بِبِئْرِ مَعُونَةَ، وَأُسِرَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، قَالَ: لَهُ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ مَنْ هَذَا؟ فَأَشَارَ إِلَى قَتِيلٍ، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ: هَذَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، فَقَالَ- أي عمرو ابن الطفيل-: لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَعْدَ مَا قُتِلَ رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ، حَتَّى إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَرْضِ، ثُمَّ وُضِعَ)) ؛ عدو الله وعدو رسوله ﷺ يشهد هذه الشهادة ! أنه لما قُتل عامر ابن فهيرة رآه رُفع .

قال رحمه الله تعالى :

[واستنفر عدو الله – عامر – بني عامر إلى قتال الباقين ، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء ، فاستنفر بني سليم فأجابته عصيَّة ورعل وذكوان ، فأحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم رضي الله عنهم إلا كعب بن زيد من بني النجار فإنه ارتُثَّ من بين القتلى ، فعاش حتى قُتل يوم الخندق . وكان عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن محمد بن عقبة في سرح المسلمين ، فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة ، فنزل المنذر بن محمد هذا فقاتل المشركين حتى قُتل مع أصحابه ، وأسِر عمرو بن أمية ، فلما أخبر أنه من مضر جزَّ عامر ناصيته وأعتقه – فيما زعم – عن رقبةٍ كانت على أمه] .

****

قال : ((**واستنفر عدو الله عامر** - أي ابن الطفيل - **بني عامر إلى قتال الباقين**)) ؛ يعني لما أمر بقتل حرام ابن ملحان رضي الله عنه استنفر بني عامر أن يقوموا معه لمقاتلة الباقين أي السبعين

الذين عند بئر معونة ، وكانوا أوفدوا منهم حرام ابن ملحان بخطاب النبي عليه الصلاة والسلام .

((**فلم يجيبوه ، لأجل جوار أبي براء**)) ؛ لما طلب منهم عامر ابن الطفيل أن يقوموا لقتالهم امتنعوا لأجل جوار أبي براء ، لأن أبو براء لما طلب من النبي ﷺ قال : ((هم في جواري)) ، فلم يخفروا جواره .

قال : ((**فاستنفر بني سليم فأجابته عصية ورعل وذكوان**)) ؛ أجابوه في مقاتلة هؤلاء .

((**فأحاطوا بأصحاب رسول الله** – عند بئر معونة – **فقاتلوا حتى قُتلوا عن آخرهم**)) وكان عددهم سبعين رجلاً وكانوا من خيار الصحابة وسادتهم وأفاضلهم وقراءهم كما مرّ معنا في كلام ابن كثير .

قال : ((**إلا كعب ابن زيد من بني النجار فإنه ارتُثَّ من بين القتلى**)) ؛ ارتُث : من الإرتثاث أي أنه أصيب بجراح شديدة لكن لم يمت ، ثم حُمِل من بين القتلى وكتب الله ﷻ له حياةً. قال ابن كثير رحمه الله : ((**فعاش حتى قُتل يوم الخندق**)) .

وجاء في الصحيح من حديث أنس ابن مالك قال : ((فَقَرَأْنَا فِيهِمْ قُرْآنًا ، ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ رُفِعَ)) يعني نزل قرآن ثم نُسِخ ، وهو : ((بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا)) . نزلت فيهم هذه الآية ثم نسخت .

قال : ((**وكان عمرو ابن أمية الضمري والمنذر ابن محمد ابن عقبة في سرح المسلمين ، فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة**)) ؛ وحوَمان الطير يدل على أن فيه قتلى ، فيه دماء .

((**فنزل المنذر بن محمد هذا فقاتل المشركين حتى قُتل مع أصحابه ، وأُسر عمرو ابن أمية الضمري ، فلما أخبر أنه من مضر جز عامر أي ابن الطفيل ناصيته** – يعني مقدمة رأسه – **وأعتقه فيما زعم عن رقبة كانت على أمه**)) . والنبي عليه الصلاة والسلام لما بلغه يعني هذه الخيانة وهذا المكر بهؤلاء الأفاضل والأخيار ، قنت على هؤلاء العصابة من الناس – عصية ورِعل وذكوان – شهراً ، ودعا صلوات الله وسلامه عليه على الطفيل ابن عمرو ، وسيذكر ابن كثير رحمه الله في فصل فيما بعد ذلك قنوت النبي عليه الصلاة والسلام على هؤلاء الذين قتلوا القراء في بئر معونة .

قال رحمه الله :

[ويرجع عمرو بن أمية ، فلما كان بالقرقرة من صدر قناة نزل في ظل ، ويجيء رجلان من بني كلاب –وقيل من بني سليم– فنزلا معه فيه ، فلما ناما فتك بهما عمرو وهو يرى أنه قد أصاب ثأراً من أصحابه ، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به ، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما فعل ، قال: (لقد قتلتَ قتيلين لأديَنَّهما) . فكان هذا سبب غزوة بني النضير ، هذا الصحيح] .

****

قال : ((**ويرجع عمرو ابن أمية **)) ؛ لما فُك من الأسر وجزت ناصية رأسه .

((**فلما كان بالقرقرة من صدر قناة نزل في ظل ، ويجيء رجلان من بني كلاب وقيل من بني سليم فنزلا معه فيه** – في هذا الظل – **فلما ناما فتك بهما عمرو وهو يُرى أنه قد أصاب ثأراً من أصحابه**)) وهو يُرى يعني يظن أنه قد أصاب بهذا الفتك ثأرا من أصحابه .

((**فلما قتلهما وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به ، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما فعل ، قال : لقد قتلت قتيلين لأدينهما**)) ؛ فقتلهما وفي هذا إخفار لذمة النبي ﷺ ، لكنه ولم يكن على علم ولم يشعر أن معهما هذا العهد إلا بعد أن قتلهما ولو كان على علم بذلك لما فعل رضي الله عنه . فقال عليه الصلاة والسلام: ((لقد قتلت قتيلين لأدينهما)) أي لأدفعن ديتهما لأنه معهما عهد من رسول الله ﷺ ، والعهد هو الذمة ، فانظر الوفاء العظيم من نبينا عليه الصلاة والسلام !! مع أن أصحابه قُتل منهم سبعون من قوم هؤلاء ولكونه لهما عهد عنده وفى عليه الصلاة والسلام بعهده فقال : لأدينهما .

قال بن كثير : ((**فكان هذا سبب غزوة بني النضير هذا الصحيح**)) ؛ في بعض النسخ ((كما ورد هذا في الصحيح)) ، فكان هذا سبب غزوة بني النضير ؛ أن سبب تلك الغزوة أن النبي عليه الصلاة والسلام للعهد الذي بينه وبين بني النضير ذهب إليهم يطلب منهم معاونته ومساعدته في دية هذين الرجلين فتآمروا وهو عندهم على قتله كما ستأتي قصتهم قريباً .

ثم قال رسول الله ﷺ : ((هَذَا عَمَلُ أَبِي بَرَاءٍ، قَدْ كُنْتُ لَهَا كَارِهًا مُتَخَوِّفًا)) ، مرّ معنا أن أبو براء قال : أنا أظن أنه سيسلِم عدد من الناس أرسل مجموعة وأنا جار لهم ، فالنبي عليه

الصلاة والسلام استجاب لحرصه على دعوة الناس للخير وبلوغ رسالة الله ﷻ ، لكنه كان كاره ومتخوف . وهذا يؤخذ منه فائدة : أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف:١٨٨] ، بخلاف الغلاة الذين يغلون في شخصه عليه الصلاة والسلام ويعتقدون فيه عقائد هي خاصة برب العالمين جل وعلا . فهاهو عليه الصلاة والسلام يقول : ((هَذَا عَمَلُ أَبِي بَرَاءٍ، قَدْ كُنْتُ لَهَا كَارِهًا مُتَخَوِّفًا)) ولم يكن يعلم أنَّ سبعين من أصحابه في هذا البعث كلهم يُقتلون قتل نفسٍ واحدة في لحظة واحدة وهم من خيار أصحابه ﷺ . فهذا واحد من عشرات أو مئات الأدلة والشواهد على أن النبي والأنبياء عموماً لا يعلمون الغيب .

وأما عامر ابن الطفيل هذا العدو المعاند المستكبر الذي كان يسبح في أحلام وزعامات ورءاسات ويأتي إلى النبي عليه الصلاة والسلام إما أن أكون كذا وإما أن أكون كذا بتعالٍ وتكبر وامتناع ثم يقتل حرام ابن ملحان لما بعثه إليه النبي ﷺ بخطاب دون أن ينظر في الخطاب ، فدعا عليه النبي عليه الصلاة والسلام ، جاء في صحيح البخاري قال : ((فَطُعِنَ عَامِرٌ فِي بَيْتِ أُمِّ فُلَانٍ)) أي أصيب بالطاعون ، وقد جاء في حديث صحيح عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((الطاعون غُدَّةٌ كَغُدَّةِ الْبَعِيرِ)) يعني ورم وانتفاخ يخرج في البدن ثم يسري فيه ويكون سبب آلام وأوجاع شديدة ثم يزيد سريانه وانتشاره في البدن إلى أن يقتل صاحبه . فقال : ((غُدَّةٌ كَغُدَّةِ البَكْرِ ، فِي بَيْتِ امْرَأَةٍ مِنْ آلِ فُلَانٍ !! ائْتُونِي بِفَرَسِي، فَمَاتَ عَلَى ظَهْرِ فَرَسِهِ)) ؛ تبدَّدت تلك الأحلام والمطامع والتعالي والتكبر وقتله الله ﷻ هذه القِتله ، الناس يرون هذا المتغطرس في ألم شديد ينطلق به فرسه لا إلى جهة من آلام وأوجاع شديدة يجدها إلى أن تخرج روحه على هذه الحال وفي تلك الأوجاع والآلام فأهلكه الله ﷻ هذا الهلاك الذي هو عبرة للمعتبرين .

قال رحمه الله :

[وزعم الزهري أن غزوة بني النضير بعد بدر بستة أشهر ، وليس ذلك كما قال ، بل التي كانت بعد بدر بستة أشهر هي غزوة بني قينقاع ، وأما بنو النضير فبعد أحد ، كما

أن قريظة بعد الخندق ، وخيبر بعد الحديبية ، وغزوة الروم عام تبوك بعد فتح مكة ، وأمر عليه السلام عند موته بإجلاء اليهود والنصارى من جزيرة العرب] .

****

قوله : ((**وزعم الزهري**)) إلى قوله ((**من جزيرة العرب**)) هذه الجملة موجودة في بعض النسخ وفي بعضها ليست موجودة ، وأورد فيها ابن كثير رحمه الله قال : ((**وزعم الزهري أن غزوة بني النضير بعد بدر**)) ونحن مر معنا أن الذي كانت بعد بدرٍ هي غزوة بني قينقاع وهم أول من نقض العهد من قبائل اليهود الثلاثة التي كانت في المدينة ، فتعقب ابن كثير ذلك قال : ((**وليس ذلك كما قال ، بل التي كانت بعد بدرٍ بستة أشهر هي غزوة بني قينقاع ، وأما بنو النضير فبعد أحد ، كما أن قريظة بعد الخندق ، وغزوة الروم عام تبوك بعد فتح مكة**)) وأشرت سابقاً أن غزو النبي ﷺ اليهود بناء على نقضهم للعهد كان على إثر معركة من المعركات الأمهات التي خاضها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**وأمر ﷺ عند موته بإجلاء اليهود والنصارى من جزيرة العرب**)) ؛ هذا جاء فيه أحاديث منها ما في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((أَخْرِجُوا المُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ العَرَبِ)) ، وجاء في صحيح مسلم عن ابن عمر عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ، وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لَا أَدَعَ إِلَّا مُسْلِمًا)) .

قال رحمه الله تعالى :

[فصل (غزوة بني النضير) : ونهض رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة إلى بني النضير ليستعين على دية ذينك القتيلين لما بينه وبينهم من الحلف ، فقالوا : نعم . وجلس ﷺ هو وأبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه رضي الله عنهم تحت جدار لهم ، فاجتمعوا فيما بينهم وقالوا : من رجل يلقي هذا الرحى على محمد فيقتله ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش –لعنه الله– وأعلمَ الله رسوله بما همُّوا به ، فنهض ﷺ من وقته من بين أصحابه فلم يتناهَ دون المدينة ، وجاء من أخبر أنه رآه ﷺ داخلاً في حيطان المدينة ، فقام أبو بكر ومن معه فاتبعوه . فأخبرهم بما أعلمه الله من أمر يهود ، فندب الناس إلى قتالهم ، فخرج

واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وذلك في ربيع الأول فحاصرهم ست ليال منه . وحينئذ حُرمت الخمر ، كذا ذكره ابن حزم ، ولم أرهُ لغيره . ودسَّ عبد الله بن أبيّ بن سلول وأصحابه من المنافقين إلى بني النضير : أنّا معكم نقاتل معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فاغتر أولئك بهذا ، فتحصنوا في آطامهم . فأمر ﷺ بقطع نخيلهم وإحراقها ، فسألوا رسول الله أن يجليهم ويحقن دماءهم على أن لهم ما حملت إبلهم غير السلاح فأجابهم إلى ذلك. فتحمل أكابرهم كحيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق بأهليهم وأموالهم إلى خيبر فدانت لهم ، وذهبت طائفة منهم إلى الشام . ولم يسلم منهم إلا رجلان وهما : أبو سعد بن وهب ، ويامين بن عمير بن كعب، وكان قد جعل لمن قتل ابن عمه عمرو بن جحاش جُعلاً ، لما كان قد همَّ به من الفتك برسول الله ﷺ فأحرزا أموالهما . وقسم رسول الله ﷺ أموال الباقين بين المهاجرين الأولين خاصة ، إلا أنه أعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف الأنصاريين لفقرهما ، وقد كانت أموالهم مما أفاء الله على رسوله، فلم يوجف المسلمون بخيل ولا ركاب . وفي هذه الغزوة أنزل الله سبحانه سورة الحشر ، وقد كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يسميها سورة بني النضير] .

****

هذا الفصل عقده رحمه الله تعالى لذكر غزو النبي ﷺ بني النضير ، وهم إحدى قبائل اليهود الثلاثة الذين لما قدِم النبي ﷺ كانوا إذ ذاك من سكانها ، فهادنهم النبي عليه الصلاة والسلام وكان بينه وبينهم عهد ، وكان أول قبيلة نقضت العهد هم بنو قينقاع ، وثاني قبيلة من هذه القبائل الثلاثة نقضاً للعهد هم قبيلة بني النضير ، وسيأتي ذكر نقض هؤلاء للعهد ثم على إثر ذلك غزو النبي ﷺ لهم ، وهذه الغزوة كانت في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة .

وكان سبب هذه الغزوة : أن عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه لما قتل القتيلين الذين لهما عهد عند النبي عليه الصلاة والسلام وقال عليه الصلاة والسلام ((لأدينهما)) على إثر ذلك لما جاء عمرو وأخبر النبي ﷺ بذلك ذهب إلى بني النضير يطلب منهم ويستعينهم على دية ذينك القتيلين ، لأنه بينه وبينهم عهد وتعاون على مثل هذه الأمور.

((**فنهض رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة إلى بني النضير** – ويرأسهم حُيي بن أخطب – **ليستعين على دية ذينك القتيلين لما بينه وبينهم من الحلف**)) ؛ في بعض النسخ ((لما بينهما وبينهم)) أي : للحلف الذي كان بين بني النضير وبني عامر الذين منهم هذين القتيلين ، وفي بعض النسخ ((لما بينه وبينهما)) أي لما بين النبي ﷺ وبين هذين القتيلين من عهدٍ .

((**فقالوا : نعم**)) ؛ يعني طلب منهم أن يساعدوه في الدية فلم يُظهروا امتناعاً .

((**وجلس ﷺ هو وأبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه رضي الله عنهم تحت جدار لهم**)) في انتظار أنهم سيجمعون ما يعاونون به في دية هذين القتيلين .

((**فاجتمعوا فيما بينهم وقالوا : من رجل يلقي هذا الرحى على محمد فيقتله ؟**)) ؛ الرحى : الذي يستعمل في الطحين ، وهو صخرة منبسطة ثقيلة رميها قاتل ، فقالوا من يصعد على الجدار ويلقي الرحى عليه فيقتله ؟ .

((**فانتدب لذلك عمرو ابن جحاش لعنه الله ، وأعلَم الله رسوله بما همُّوا به**)) ؛ حتى قيل إنَّ بعض كبراءهم –قيل إنه سلَّام ابن مشكام – قال لهم: "لا تفعلوا ، يأتيه وحي ويخبره بذلك" .

((**فنهض من وقته**)) ؛ أي نهض سريعاً من بين أصحابه .

((**فلم ينتهِ دون المدينة**)) ؛ أي لم يتوقف دون المدينة .

((**وجاء من أخبر أنه رآه ﷺ دخل في حيطان المدينة ، فقام أبو بكر ومن معه فاتبعوه ، فأخبرهم بما أعلمه الله من أمر يهود ، وندب الناس إلى قتالهم**)) ؛ وهذا فيه أن نقض العهد إعلام للحرب ، مادام أنهم نقضوا العهد وهموا بقتل النبي عليه الصلاة والسلام فهذا فيه إعلام بالحرب والمقاتلة .

((**فخرج واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وذلك في ربيع الأول فحاصرهم ست ليال منه**)) أي من هذا الشهر .

قال : ((**وحينئذٍ حُرِّمت الخمر ، كذا ذكره ابن حزم**)) أي في كتابه جوامع السير .

قال : ((**ولم أره لغيره**)) ؛ ممن سبق ابن حزم إلى ذلك ابن هشام في سيرته كما في المجلد الثالث ٩٩٤ .

((**ودسَّ عبد الله بن أبيّ بن سلول وأصحابه من المنافقين إلى بني النضير : أنّا معكم نقاتل معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فاغتر أولئك بهذا ، فتحصنوا في آطامهم**)) ؛ عبد الله بن أبيّ المنافق لما بلغه هذا الخبر وبلغه تهيؤ النبي عليه الصلاة والسلام وتجهزه مع الصحابة لمقاتلتهم وغزوهم وأنه عليه الصلاة والسلام أرسل لهم يأمرهم بالجلاء من المدينة والخروج منها ، دسَّ إلى بني النضير يعني أرسل إليهم من يقول لهم : لا تفعلوا ذلك ولا تنثنوا ولا تقبلوا إنا معكم نقاتل ، وإلى هذا الإشارة في قوله ﷻ في سورة الحشر : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ [الحشر:١١-١٤] .

ولاحظ هنا ؛ يقول : ((**فتحصنوا في آطامهم**)) وهذا هو معنى قوله : ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ﴾ يعني مثل يهود بني النضير مثل بني قينقاع الذين أجلاهم النبي ﷺ ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) ﴾ فهذا مآل الجميع ونهاية الجميع .

وأيضاً قوله ((**فتحصنوا في آطامهم**)) هذا هو معنى قول الله: ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) ﴾ .

قال : ((**فأمر ﷺ بقطع نخيلهم وإحراقها**)) وذلك نكاية فيهم ، حتى إنهم أشاعوا قالوا : هذا إفساد ؛ فأنزل الله ﷻ في سورة الحشر ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى

أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ(٥) ﴾ ؛ لما قالوا هذا نوع من الإفساد أخبر الله أن هذا العمل قام به ﷺ بإذن الله وفيه خزيٌ لهؤلاء يشاهدونه بأعينهم قبل أن يرحلوا من هذا المكان الذي أقاموا فيه وقتًا من الزمان .

قال : ((**فسألوا رسول الله أن يجليهم**)) ؛ يأذن لهم في الجلاء والخروج .

((**ويحقن دماءهم على أنَّ لهم ما حملت إبلهم غير السلاح**)) ؛ يعني لا يأخذون معهم شيئاً من السلاح إطلاقاً .

((**فأجابهم لذلك**)) ؛ ولما أرادوا الخروج من الديار وترك الممتلكات التي لهم فيها بحكم أنها لن تبقى لهم أخذوا يخربون أشياء منها ولهذا قال ﷻ : ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي أن قصتهم عبرة للمعتبرين في حال من ينقض العهد ويخون الأمانة .

قال : ((**فتحمل أكابرهم كحيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق بأهليهم وأموالهم إلى خيبر فدانت لهم ، وذهبت طائفة منهم إلى الشام**)) ؛ يعني هؤلاء لما حصل منهم الخروج من المدينة انقسموا إلى قسمين : قسم ذهب إلى خيبر وكانوا مع بعض أكابرهم كحيي ابن أخطب وسلام بن أبي الحقيق – وستأتي لاحقا قصة قتله– ، وذهبت طائفة منهم إلى الشام .

قال : ((**ولم يسلم منهم إلا رجلان ، وهما أبو سعد بن وهب ، ويامين بن عمير بن كعب ، وكان قد جعل لمن قتل ابن عمه عمرو بن جحاش جُعلاً ، لما كان قد همَّ به من الفتك برسول الله** ﷺ **، فأحرزا أموالهما**)) ؛ أحرزا أموالهما بسبب الإسلام وهذا رواه ابن إسحاق عن بعض آل يامين ، وكان قد جعل جُعلاً لمن قتل ابن عمه عمرو بن جحاش لما همّ به من إلقاء الرحى قاصدًا بها قتل النبي ﷺ .

ثم ذكر ابن كثير رحمه الله الطريقة التي سلكها النبي ﷺ في قسمة الأموال التي حصلت ممّا ترك بني النضير بعد الجلاء ، فقال : ((**قسم باقي الأموال بين المهاجرين الأولين خاصة ، إلا أنه أعطى أبا دجانة وسهل ابن حنيف الأنصاريين لفقرهما ، وقد كانت أموالهم مما**

أفاء الله على رسوله)) ؛ يعني أنها فيء وليست غنيمة ، والفيء يكون للإمام يقسمه بما يراه من مصلحة ، بخلاف الغنيمة التي تكون في قتال وحرب فهذه لها قسمتها .

((**فلم يوجف المسلمون بخيل ولا ركاب**)) ؛ يعني لم يكن هناك قتال ولا مشقة ومشوا إليهم بالأقدام ، فهذا ممّا أفاءه الله على رسوله وليس غنيمة ، فقسّمه النبي عليه الصلاة والسلام على المهاجرين الأولين خاصة وأعطى رجلين من الأنصار لفقرهما .

قال : ((**وفي هذه الغزوة أنزل الله سبحانه سورة الحشر ، وقد كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يسميها سورة بني النضير**)) ؛ وهذا في صحيح البخاري ، يسميها سورة بني النضير لأنها سيق فيها خبر هؤلاء وقصتهم .

قال رحمه الله تعالى :

[فصل : وقنت رسول الله ﷺ شهراً يدعو على الذين قتلوا القرَّاء أصحاب بئر معونة]

.

****

أشار هنا رحمه الله تعالى في هذا الفصل إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام استمر شهرًا كاملاً يدعو على الذين قتلوا القراء أصحاب بئر معونة وهم : عُصية ورعل وذكوان ، كان يسميهم ﷺ بأسمائهم ، وهذا أول وبداية مشروعية القنوت في النوازل ، فهديه وسنَّته عليه الصلاة والسلام هي القنوت في النوازل ؛ يقنت في الصلاة المفروضة إذا كان هناك نازلة نزلت ، وإذا ارتفعت النازلة يتوقف القنوت .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهمّ صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبيّنا محمد و آله وصحبه

..*